نهاية حرب الشمال

تـرك الانتصار البحري الذي حققه الـرُوس في معركة هانكو انطباعًا مدهشًا، لا يقل عن الانتصار البري في معركة بولتافا، ففي البلطيق، في أعقاب احتلال قسم كبير من فنلندة، استولت قوات بطرس على جزر ألاند عند سـواحل السويد، وبعد ذلك، في أيلول (سـبتمبر) من عام ١٧١٤، نفسه شنت فصيلة روسية حملة على ساحل المملكة السويدية ذاتها.

كانت الهزائم الجديدة التي لحقت بالملك كارل الثاني عشر، والعمليات الحربية التي شـنت في أراضي دولتـه، ذات دلالة واضحة على ما يبدو، حيث حـددت مصير السـويد وضـرورة توقيع الصُلـح مع روسـيا، وكان بطرس يأمـل في ذلـك، إلا أن حـرب الشـمال اسـتمرت، وكانت بمثابة «مدرسـة بثلاث مراحل»، على حد تعبير بطرس نفسـه، فيمـا بعد، وفي تلك الأونة، انتهت مرحلتاها الأولى والثانية (وكل منهما بسبع سنين)، وبقيت المرحلة الثالثـة، وبعـد كل الانتصـارات التي حققتها روسـيا اضطـرت إلى خوض العمليات الحربية، وممارسـة لعبة دبلوماسـية معقدة طوال سـبع سنوات أخـرى، والسـبب في ذلـك لا يقتصر على تعنـت كارل الثَّاني عشـر الذي جعل السـويد على شفا الكارثة الوطنية، بل يمكن أيضًا في الموقف في أوربا على صعيد السياسة الخارجية.

ففـي نيسـان (أبريـل) ١٧١٣، وقّعـت الـدول المتحاربـة في أوربـا الغربية صلـح أوتريخـت، ووضعت الحـرب من أجـل التركـة الأسـبانية أوزارها، وارتسمت سيطرة بريطانيا في الشؤون الأوربية والعالمية، فإن انتقال جبل طـارق، وجزيرة مينوركا إليها، وتدمير دونكرك الفرنسـية، وكسـب المستعمرات (وحق تجارة الرقيق) في أميركا الشمالية والجنوبية، (بفضل المعاهـدة مـع البرتغـال)ـ كل ذلـك أدى إلى هيمنة الأسـطول البريطاني، والتجـارة البريطانية ليس فقط في البحر الأبيض المتوسـط وبحر الشـمال، بل وفي المناطق الحساسـة من محيطات العالم، وكان الطموح إلى الهيمنة والتوسـع البحـري والتجـاري العالمـي لا بد وأن يدفـع بريطانيـا إلى الصدام

مـع الدول الأخرى، وفي البلطيق كانت روسـيا هي إحدى تلـك الدول، فإن جبروتها العسكري، بما فيه البحري، ينمو بسرعة.

وأثـار ظهور قوات بطـرس في بوميرانيا السـويدية، واسـطوله المظفر في بحر البلطيق، قلقًا شـديدًا لدى الدول البحريـة الأوربية، لكنه حملها في الوقـت ذاته على إقامة اعتبار له، وازداد نفوذ روسـيا في أوربا على مرأى من الآخريـن، وحاولت الـدول الأوربية إعاقة ذلك بمختلف السُـبل، ففي بداية عام ١٧١٣، مثلًا، خطط البلاط البريطاني لإرسـال عمارة من ١٥ سفينة إلى سـاحل بوميرانيا، ودعا هولندة للمشـاركة في الحملة مـن أجل الضغط علـى بطرس الأكـبر، إلا أن هولنـدة رفضت، فتأجلت الحملـة بالضرورة، واسـتخدمت المناورات الدبلوماسـية، فقد ألح الوسطاء الإنجليز وغيرهم في عـرض خدماتهم، وطالبوا القيصر بأن يوقع الصُلح مع السـويد، ويسـلمها كل الأراضي المكتسبة، ما عدا بطرسبورغ، ورفض بطرس ادعاءاتهم هذه بالطبع، ووافق فقط على «الوسـاطة الطيبة»، أي على اضطلاع الوسـطاء بمهمة التوصيل في المفاوضات مع السـويد، زد على ذلك أن هولندة لم تبد هـذه المرة أيضًا ميلًا إلى العمليات الموجهة ضد روسـيا، وعاد كارل الثَّاني عشـر إلى وطنه في الأخير، وظل «يسـاعد» بطرس بتعنته الأهوج، بديهي أن السـبب الأول في فشـل كل هـذه المحاولات هـو قوة روسـيا المتعاظمة، وانتصاراتها الحربية برًا وبحرًا.

واسـتمرت الحـرب، وأقـدم ملك السـويد علـى إجـراءات متطرفة لكي يطيل في أمد النهاية الحتمية، فقد أصدر «ميثاق القرصنة البحرية» الذي أعلن صراحة عن حق القرصنة في البحار، ودعم نشـاط القراصنة، وفي عام ١٧١٤، نفسـه استولى السويديون على كل السـفن التجارية، بما فيها ٢٤ سـفينة إنجليزيـة، وفي ربيع العام التالي اسـتولوا على ٣٠ سـفينة تحمل العلم البريطاني، واندلع النزاع بين بريطانيا والسـويد، وبالعكس، حدث تقـارب بين مصالح بريطانيا وروسـيا، وانخرطت في هـذه العملية هانوفر التي غدا حاكمها جورج الأول ملكًا لبريطانيا بعد وفاة الملكة آنا في آب

(أغسطس) ١٧١٤، وفي١٧ تشرين الثاني (أكتوبر) ١٧١٥ وقّع بطرس معه معاهدة في غريفسوالد التزم القيصر بموجبها بأن يساعد الملك في الحصول على بريمين وفيردون من الممتلكات السويدية في ألمانيا، والتزمت هانوفر بألا تعترض على ضم أراض في شرقي البلطيق إلى روسيا، وتعلن الحرب ضد السويد، وترسل فيلقًا من ستة آلاف رجل إلى بوميرانيا، وهكذا توسع الحلف الشمالي، وسارت الأمور نحو قيام تحالف بين بريطانيا وروسيا بصدد العمليات الحربية المشتركة ضد السويد، وأجرى المفاوضات في لندن بهذا الشأن كوراكين، وهو أحد أفضل دبلوماسَي بطرس الأكبر.

وفي عام ١٧١٦ تقابل بطرس مع ملوك بولونيا وبروسيا والدانمرك ودوق كيكلينبورغ. وفي آيار (مايو) أثناء اللقاء مع الملك الدانمركي في هامبورغ، تمكن بطرس من الاتفاق معه بصدد القيام بإنزال مشترك في سكونه جنوبي السويد.

إلا أن العلاقات مع بريطانيا تأزمت بشكل لم يكن بطرس يتوقعه، فقد وعد الوزير البريطاني تاونساند بتقديم طلب خطي حول التحالف العسكري، لكنه اقترح في آذار (مارس) توقيع اتفاقية تجارية فقط، ورفض كوراكين توقيع الاتفاقية بدون إيعاز من بطرس. وكان سبب هذا التحول هو ما يسمى بقضية ميكلينبورغ، والقضية أن دوق ميكلينبورغ طلق زوجته الأولى، وتزوج ثانية من يكاترينا ايفانوفنا ابنة أخي بطرس، ايفان الخامس الراحل الذي شاركه في الحكم في حينه، وبموجب عقد الزواج (٢٢ كانون الثاني- يناير ١٧١٦)، وعد بطرس الدوق بتسليمه مدينتي ويسمار ووارنيموندي من نفس الممتلكات السويدية في ألمانيا، وفي ٨ نيسان (أبريل)، في يوم الزفاف، تم توقيع معاهدة التحالف بين روسيا وميكلينبورغ، ووعد بطرس صهرة بمساعدة عسكرية، وتأييد ضد المعارضة الداخلية، وقد غدت ميكلينبورغ في الواقع بمثابة المحمية بالنسبة لبطرس وروسيا، وفي تلك السنوات دبر القيصر، لأغراض سياسية دون شكن زيجات أخرى لأقربائه، فقد زوّج ابنه ألكسي من

شارلوتا أميرة ولفينبوتيل (١٧١١)، وزوج آنا (ابنة أخيه ايفان الخامس) من دوق كورلياندیا (١٧١٠)، وولد من الزواج الأول ابن سموه بطرس، وقد غدا فيما بعد إمبراطورًا لروسيا (بطرس الثاني)، لأمدٍ غير طويل، أما آنا ايفانوفنا فقد غدت إمبراطورة لروسيا لأمدٍ طويل نسبيا.

ومن بين كل عقود الزواج تلقى بطرس أكثر الإزعاجات من زواج دوق ميكلينبورغ، فقد أشار جورج حاكم هانوفر وملك بريطانيا، ووزيره في هانوفر بيرنسدورف صراحة إلى موقفهما السَلبي من زواج الدوق ويكاترينا، واحتمال تسليمها ويسمار، فالملك ووزيره يريدان أن تبقى ميكلينبورغ دولة محايدة، وبالإضافة غلى ذلك لم يأخذ بطرس بعين الاعتبار أن بيرنسدورف من مواليد ميكلينبورغ، ولديه ممتلكات فيها، ومن مواليد ميكلينبورغ أيضًا هولشتين وديفيتس مستشارا الملك الدانمركي فريدريك الرابع المقربان إليه، وكان للثلاثة تأثير كبير على ملكي بريطانيا والدانمرك، وقد واجهوا على أسنة الحراب معاهدة التحالف الرُوسية الميكلينبورغية، وراحوا يقنعون ملكيهم وأوربا كلها بأن بطرس يعد مخططات عدوانية توسعية في أوربا الغربية، وأخذت دسائسهم تعود بثمارها المحزنة.

صحيح أن البعض حذروا بطرس من العواقب المحتملة غير المرغوب فيها من قضية ميكلينبورغ التي اعتبرها كلوتشيفسكي، على ما يبدو، واحدة من «التفاهات»، التي أولع بها بطرس في ألمانيا في تلك السنوات، وكتب له كوراكين في شباط (فبراير) ١٧١٦:

ـ البلاط الإنجليزي غير راض عن زواج دوق ميكلينبورغ، وتسليمه ويسمار، ومن واجبي أن أبلغ بضرورة عدم الاستعجال في هذا الزواج مطلقًا... فبسببه يمكن أن تضيع الصداقة الحالية (مع بريطانيا ـ ملاحظة المؤلف)، وهي صداقة ضرورية جدًا في الظروف الراهنة، وأنا لا أدري هل نتمكن من الحصول من دوق ميكلينبورغ على نفع بقدر أولئك الذين يمكن أن نضيع صداقتهم بسببه.

إلا أن هذه الرسائل، وكذلك المعلومات عن سير المحادثات في لندن، وصلت متأخرة، واضطر بطرس على مواجهة عواقب أخطائه منذ نيسان (أبريل)، حيث أقيمت احتفالات الزفاف، وتوقيع المعاهدة مع ميكلينبورغ، وأول تلك العواقب المؤذية هي استسلام مدينة ويسمار المحاصرة من قبل قوات الدانمرك وهانوفر وبروسيا، وبأمر من القيصر وصل الجنرال ريبنين الحضور مراسيم التسليم، إلا أن الحلفاء لم يسمحوا له مع القوات الرُوسية حتى بدخول القلعة، وقال بطرس بزعل:

ـ قدمت لكل حلفائي في هذه الحرب خدمة جلي، وكنت حليفًا مخلصًا صادقًا لدرجة لا تترك لأحد سببًا لعدم الثقة بي، وللتصرف معي ومع قواتي بهذه الصورة.

أما الإنزال في شبه جزيرة سكونه، فكان يسير هو أيضًا إلى الفشل الذريع، وكان الهدف الوحيد للحملة بالنسبة لبطرس هو إرغام السويد على قبول الصُلح، ولم يكن يريد الحصول على أية أراض لا في ألمانيا ولا في السويد، وقد وافق بطرس على تسليم كل الأراضي التي أمكن كسبها من السويد على السَاحل الجنوبي للبلطيق من قبل القوات الرُوسية أو بمشاركتها إلى الحلفاء الدانمرك، وهانوفر وسكسونيا وبروسيا، ووعد بتسليم بعض الأراضي إلى ميكلينبورغ.

وحشد بطرس في شمال ألمانيا، وخصوصًا في ميكلينبورغ، جيشًا روسيًا من خمسين ألفا لأجل العملية المرتقبة في جنوب السويد، وظهر في مرفأ كوبنهاغن أسطول روسي مكون من ٢٢ سفينة، بينها ١٤ بارجة كبيرة، وكانت ترابط هناك أفواج الدانمرك وبريطانيا وهولندة، وصار بطرس ـ القيصر والأميرال ـ قائدًا للعمارة الموحدة الكبيرة ، ٨١ سفينة، وفي ٥ آب (أغسطس) خرج الأسطول إلى عرض البحر يرافق ٤٠٠ سفينة تجارية، ووصل إلى جزيرة بورنهولم ، وسرعان ما عاد منها، لأن السفن السويدية اختبأت في مرافئها، بديهي أن هذا الاستعراض البحري الحربي الذي استغرق عشرة أيام، وأشرف عليه القيصر الرُوسي قائد الأسطول قد

تـرك انطباعًـا كبيرًا بالطبع، لكنـه لم يـؤثر بأية حال علـى نهاية حرب الشـمال، ولم يتم الإنزال، لأن القوات الرُوسـية ظلت كالسَّـابق مكتوفة الأيـدي في مواقعهـا في ميكلينبـورغ والأماكن الأخـرى، وفي نهاية آب (أغسـطس) بدأ نقلهـا إلى كوبنهاغـن، ولكن ببطء شـديد، وبتأخيرات معتمدة في جانـب الدانمركيين، وحل الخريف ببرده وعواصفه البحرية، وفي ١٧ أيلول (سـبتمبر)، أعلن بطرس للملك الدانمركي بأنه أجل الإنزال إلى العام التالي، لأنه لا يريد أن يجازف بخيرة أفواجه، وردًا على ذلك انهالت الاتهامات «بالخيانة»، ونوايا الاستيلاء على كوبنهاغن، وتوقيع الصُلح مع كارل الثاني عشـر، وهلمجرا، ورد القيصر على ذلك بالبدء بسـحب قواته من الدانمرك إلى روسـتوك، وأجرى مفاوضات بشأن الإنزال في سكونه في العام التالي، وأعلن عن استعداده لسحب أفواجه من ميكلينبورغ.

باختصار، أبدى بطرس الأكبر قدر من ضبط النفس والإخلاص، كانت اتهامـات بريطانيا وحلفائها فيما يخـص ميكلينبورغ وغيرها، وكذلك الضجـة والتوتـر العصبي اللـذان رافقاهـا، مجرد ذريعـة بالطبع، فالسـبب الحقيقي لتصريحاتهم وتصرفاتهم هو القلق من تزايد جبروت ونفوذ روسيا في البلطيـق، وفي الشـؤون الأوربية، والخوف من تحويل بحـر البطليق إلى «بحـيرة روسـية»، والأكثر من ذلـك أن بريطانيا سـعت- بالاعتماد على هانوفـر ودول أخرى- إلى الهيمنة في البلطيـق، لتكون لديها هنا مراكز إسـناد كما في البحر الأبيض المتوسط (جبل طارق مثلا)، وذلك هو مبعث تحامل جـورج الأول وفريدريك الرابـع ووزرائهما ومستشـاريهما المتنفذين علـى بطـرس، ومحاولات إضعـاف نفوذ روسـيا في شمال أوربـا، وتقويض الحلف الشمالي.

ولكـن بغـض النظـر عـن بعـض الإخفاقـات والهفـوات في الشـؤون الدبلوماسـية، كان بطـرس راضيًـا عن سـير الأمـور، فهو لا يدَعـي، بأية حـال، بالمـدن والأراضي الألمانيـة، وقد وافـق على ضمها علـى ممتلكات هانوفـر، ولادول الحليفـة الأخرى، ولـذا كان يتعين على هـذه الأخيرة أن

تهتم بالحفاظ على ممتلكاتها الجديدة التي كسبتها بمساعدة حاسمة من القيصر الرُوسي، كما يتعين عليها أن تدعم مكاسبه في شرق البلطيق، وأثارت قضية الإنزال، ومماطلة الحلفاء الواضحة انفعال بطرس، فكتب إلى الجنرال أبراكسين في آب (أغسطس) يقول:

ـ اللّه وحده يعلم بمدى المتاعب معهم، فهم يضيعون الوقت الثمين، وكأنما يمارسون عملًا لا يعنيهم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أعرب بطرس عن ارتياحه قائلًا:

ـ من المستبعد أن أحدًا على وجه البسطية تشرف بقيادة أساطيل شعوب أخرى مع أسطوله، وأنا أتذكر بارتياح ثقة تلك الدول.

صحيح أن الأسطول الموحد لم يقم عند سواحل السويد بشيء يذكر، ولم يطلق ولا إطلاقة واحدة على السُفن السويدية التي اختبأت مسبقًا كالفئران في جحورها، لكن المفرح هو بالذات الاستعراض المشترك الذي اختلفت العمارة الرُوسية خلاله، في الثّامن والعشرين من أيلول (سبتمبر)، احتفالًا مهيبا بالنصر في معركة ليسنايا، وأطلق العمارة البريطانية معها قذائف المدافع «مهنئة بذكرى هذا النصر»، (كما جاء في مجلة الرحلات الرُوسية في وصف أحداث ذلك اليوم).

واستنكر بطرس المماطلة المتكررة التي أثارت انفعاله، فنفد صبره، وكان هياجه يؤدي أحيانًا إلى ظهور مواقف غير عادية، ذات مرة، وهو في الدانمرك، نهض كعادته في الصباح الباكر، وفي الساعة الثامنة جاء رسول القيصر إلى بلاط الملك يحمل طلبًا باللقاء، وأخبره رجال البلاط أن الملك لا يزال نائمًا، وبعد ساعتين كرر الطلب، فردوا عليه بأن فريدريك نهض من النوم، لكن أحدًا لم يتجرأ على دخول غرفة نومه، وبعد ساعة من ذلك كان الملك يرتدي ثيابه، نفد صبر بطرس نهائيًا، وأخيرًا جاءه الملك بنفسه، فبادره بطرس قائلًا:

ـ الأمور، يا أخي، لا يمكن أن تكون بشكل طيب إذا سارت على هذه الصورة، ففي كل يوم لدينا أشياء هامة كثيرة يجب أن نخبر بها بعضنا البعض، في حين ليس بالإمكان الدخول على جلالتكم دوما، وأنا أيضًا عندي أشغال، فلنتفق نهائيًا على ساعة معينة، ويوم معين نلتقي فيهما عندما يكون لدينا ما نقوله لبعضنا البعض.

ووافق الملك خجلًا على حجج القيصر الروسي، لكنه طلب مع ذلك ألا تجري اللقاءات في الصباح، ولم تساعد اللقاءات والأحاديث على تقدم القضية كثيرًا، فقد تأجل غزو السويد، وارتحل بطرس من الدانمرك إلى هولندة، فلعله يتمكن هنا من الحصول على دعم الولايات الهولندية لإنهاء الحرب أخيرًا، وقد وصل إلى هنا سرًا هذه المرة أيضًا، لكنهم سرعان ما اكتشفوا سره من جديد، وكما كان في المرة الأولى تفقد القيصر أحواض بناء السفن، والمانوفاتورات، والسفن الورشات، واقتنى لوحات الرسامين الهولنديين، وزار المنزل الذي أقام فيه فترة أثناء «البعثة الكبرى»، واستقبلته نفس صاحبة البيت المضيافة:

ـ أهلا وسهلا بالأسطة بطرس.

ـ من أين تعرفينني؟

ـ أنا زوجة الأسطة بول، وكنت تتغدى في منزلنا.

فرح القيصر، وعانق المرأة، أرملة أسطة السفن، الذي علمه في حينه، وسلّمه شهادة تقول، أن بطرس بلغ مستوى رفيعًا في فن بناء السفن، إلا أن رحلة بطرس إلى هولندة لم تقترن دومًا بمثل هذه اللقاءات والأحاديث المفرحة، فإن صاحب الفندق، وهو ليس من أحسن الفنادق، طلب مقابل المبيت والعشاء المتواضع جدًا مبلغًا ضخمًا، ٣٠٠ روبل ذهبًا، فاعترض القيصر الذي يتميز بالبخل في نفقاته الشخصية، وقال مستاء:

ـ لقاء أي شيء تطلب هذا المبلغ الضخم؟

ـ تعتبر الثلاث مئة روبل مبلغًا ضخمًا؟ لو كنت أنا قيصر روسيا لدفعت ثلاثة آلاف.

ودفع بطرس المبلغ، وتقابل القيصر مع البحارة والنجارين، وكان تصرفه في منتهى البساطة كالسابق، وقد اهتم بمختلف الحرف، وقام بجولات بحرية، واستغرب له الكثيرون، فقد ظل على سابق عهده من حيث العمر، فقد مرَّ عشرون عامًا على رحلته الأولى إلى أوربا، ورأى فيه الهولنديون الآن ليس ذلك القيصر الشَّاب الخجول غير المجرب، بل حاكمًا ناضجًا واثقًا من نفسه، بالإضافة إلى كونه قائدًا عسكريًا، وربانًا للأسطول، وأسطه في بناء السفن، وإنسانًا متضلعًا في العديد من الاختصاصات الأخرى، «فلنتكلم بلغة النجارين، هذا ما قاله للأسطوات الهولنديين، الذين تحيروا في العثور على الكلمات المناسبة أثناء الحديث مع الرجل الذي غدا من زمان نار على علم من جميع النواحي.

وزار بطرس فرنسا أيضا، ففي ٢٧ نيسان (أبريل) ١٧١٧، وصل بالسفينة إلى دونكيرك، واطلع على الميناء والهويس والاستحكامات والمتاجر، ولم يهتم بالمآدب، والألعاب النَّارية والحفلات والزينات، ولم يعبأ بالأطعمة الوفيرة، مما جعل جهود الوجهاء بهذا الخصوص تهدر عبثًا في بعض الأحيان، وعندما يخبرونه بمثل هذه المآدب يجيب قائلًا:

ـ أنا جندي اقتنع بالخبز والماء.

في باريس خصصت للقيصر غرفة وثيرة في اللوفر، وأعدوا مائدة فاخرة من ٨٠٠ طبق، أما بطرس فقد ذات قليلًا من النبيذ، واقتطع كسرة من البسكويت، وطلب غرفة أكثر تواضعًا لأجل المبيت، وفي فندق ليديغير الذي خُصص له طلب، أن يفرشوا له فراش السفر الذي يحمله في عربته، وأمر أن يفرشوه ليس في غرفة النوم، بل في غرفة الثياب، وكان ينتظر هنا زيارة رسمية، وكتب إلى زوجته يكاترينا عن ضجره قائلًا:

ـ أنا مضطر للبقاء في الفندق يومين أو ثلاثة من أجل الزيارة وغيرها من الرسميات، ولذا لم أر هنا شيئًا بعد، وسأبدأ بالتجول غدا أو بعد غد، أما في الطريق فما أكثر ما رأيناه من بؤس عامة الناس.

وقد رافق بطرس في رحلته أحد رجال الحاشية، وكتب يصف مظهره الخارجي:

ـ القيصر فارع القامة جدا، ومحدودب الظهر بعض الشيء، وقد اعتاد أن يطأطئ رأسه قليلًا، وهو أسمر، في ملامح وجهه أمارات القسوة.

ويقول هذا الرجل: أن القيصر الرُوسي ينهض في الصباح الباكر، ويتناول طعام الغداء في حوالي العاشرة، ويتعشى في حوالي السَّابعة، ويأوى إلى الفراش قبل التاسعة، و يحتسي قبل الغداء الفودكا أو الجعة أو النبيذ، و يحب الخبز الأسمر (حيث يخبزونه خصيصًا له)، كما يحب اللوبيا، ومن الفواكه يعجبه البرتقال والفتاح والكمثرى، ويتجول في العاصمة الفرنسية في بدلة جوخ بسيطة ومتواضعة للغاية، ومن الحزام العريض يتدلى سيف، ويرتدي الشعر المستعار دون مساحيق، وقميصه بدون أكمام.

وسرعان ما بدأت الزيارات وحفلات الاستقبال، وجرت المفاوضات الدبلوماسية في منتهى السرية، وأجراها كوراكين وشافيروف عن الجانب الرُوسي، وتقابل بطرس عدة مرات، بصورة سرية أيضًا، مع دوق أورليان الوصي على الملك لويس الخامس عشر، البالغ من العمر سبع سنوات، وقام الملك الصغير بزيارة إلى القيصر، إلا أن هذا الأخير لم يلتزم بالمراسيم التي وضعها المجلس المملوكي، فاستقبل الصبي عند باب العربة، واحتضنه ورفعه وقبله، وأضاف قائلًا: « هذه ليست قبلة يهوذا»، وكتب إلى زوجته يقول:

ـ أخبرك بأن الملك زارني يوم الاثنين الماضي، وهوصغير لا يزيد طوله سوى أصبعين على صاحبنا لوقا (القزم الذي رافق بطرس ـ ملاحظة المؤلف)، وهو صبي رائع الوجه والقوام، وفطين جدًا بالنسبة لعمره، فهو في السَّابعة فقط.

وفي حزيران (يونيو) تقابل بطرس مع الجغرافي الشهير ديليل، والعلماء المعروفين الآخرين، واهتم بدراساتهم وبأمور التدريس، وزار كلية الأمم

الأربع، وحضر جلسة أكاديمية العلوم، واطلع على الكثير وحفظ الكثير، شاهد عملية جراحية للعين أعادت البصر إلى شخص في الخامسة والستين، كان يعاني من انسداد عدسة العين, وشاهد مضخة لرفع المياه, واطلع على خرائط جغرافية، ورسوم في تاريخ الفنون، وأمور كثيرة أخرى، وأدهش محدثيه بمعارفه ومواهبه، واستفسر ديليل من القيصر عن بحر الخزر وبحر آزوف، وفيما بعد استفاد بطرس كثيرًا من هذه الأحاديث، في تنظيم البعثات الخاصة برسم الخرائط وغيرها، واهتم بدار سك النقود، وصناعة الجوبلين، وبالقصور والمنتزهات الملوكية، والترسة والصيدليات والبرك والأحواض والنافورات، وكان يحتفظ بالتفاصيل ليقوم فيما بعد, في روسيا, بكل ما هو ضروري وما تفتقر إليه، وكانت مفكراته تمتلئ بالملاحظات والمعلومات، واستدعى الإخصائين للعمل في روسيا, حيث تعاقد مع ٥٠ شخصًا، (وليس ١٠٠٠ونيف، كما في نهاية العقد السابق)، وهم من العلماء والمعماريين والرسامين والنحاتين والصاغة وغيرهم، (وليس الضباط, فلديه الآن ضباط ؤوس كثيرون).

ودهش الفرنسيون, لا سيما رجال البلاط, بخاصة من أن العاهل الروسي لا يميل إلى اللهو والتسلية والصيد والمسارح والمجنون، (فلم يكن في الواقع يلتف إلى الأرستقراطيات والحسناوات اللواتى حاولن أن يحظين بأهتمامه)، وهو غالبًا ما يستهن بالرسميات ويتحدث مع عامة الناس برغبة، فقد زار دار العجزة، وتحدث مع الجنود المسَرحين، ونعتهم «بأصحابي»، وتناول الطعام والشراب معهم على مائدة واحدة.

وكانت آراء الناس فيه متعارضة، فالأب دوبوا الذي تجادل مع دبلوماسيي بطرس، حول طاولة المفاوضات في باريس، لم يخف موقفه السلبي منه:

ـ القيصر متهور ولا يصلح الإ لمهنة رئيس نوتية في سفينة هولندية.

وأعرب لوفيل عن رأى مغاير:

ـ ليس عندنا في فرنسا شخص يشبهه من حيث مهارته في الشؤون البحرية والحربية والأستحكامات...، وتكشف الأسئلة التي طرحها على

العلماء والرسامين عن اطلاعه, وهو يثير الإعجاب من حيث سعة مداركة وبعد نظرته.

وفي مدينة رايمس التي زارها القيصر، عرض عليه كهنة الكاثدرائية كتابًا دينيًا قديمًا، وأوضحوا له أنه مكتوب بأبجدية قديمة لا يعرفها أحد، فأخذه القيصر، وأدهش الضاربين عندما شرع يقرأ الكتاب بطلاقة، فالمخطوطة هى إنجيل باللغة الرُوسية القديمة، كانت قد جلبته في القرن الحادي عشر آنا, ابنة ياروسلاف الحكيم, التي صارت ملكة لفرنسا بعد ان تزوجت من الملك, وهو أُميٌ شأن اغلبية معاصرية آنذاك، وكانت فرنسا, في تلك الحقبة, بلدًا متخلفًا،بالمقارنة مع دولة كييف الرُوسية.

في سان سير زار القيصرالرُوسي السيدة مينتينون محبوبة لويس الرابع عشر الشهيرة، وفي غرفتها المسدلة الستائر ازاح بطرس تلك الستائر ليراها جيدًا، وسألها:

ـما مرضك ؟

ـ الشيخوخة.

ـكلنا معرضون لهذا المرض لو طال بنا العمر.

ولم يترك استعراض الحرس والأفواج الميدانية التي اصطفت تكريمًا له انطباعًا في نفسه:

ـرأيت دُمى مزوقة، وليس جنودًا، وهم يتلاعبون بالسلاح، ويرقصون في السير ولا شئ آخر.

ويتميز الاستنتاج العام من ملاحظاته في باريس بالازدراجية:

ـأنا أسف، لأن ملابسات الوطن ترغمني على ترك هذا المكان، الذي تزدهر فيه العلوم والفنون, كما إني أسف لأن هذه المدينة ستصاب آجلًا أم عاجلًا باضرار كبيرة، بسبب الابهة والاستهتار، وستختنق بالدخان.

وغادر بطرس العاصمة الفرنسية إلى سبا حيث المياه، وفي تلك الأثناء، واصل الدبلوماسيون مباحثاتهم، وفي ٤ آب (اغسطس)، تم في أمستردام توقيع معاهدة، التزمت فرنسا بموجبها بالتوسط في المفاوضات بين روسيا والسويد، ووعدت بعدم تسديد المعونة المالية، وعدم تقديم أية مساعدات أخرى إلى السويد، والاعترافات مستقبلًا بحق روسيا في الأراضي التي كسبتها في شرقي البلطيق، وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٧١٧، عاد القيصر إلى روسيا بعد أن أمضى في الخارج سنة ونصفا.

وترك بطرس في فرنسا آثارًا طيبة، فخلال مكوثه فيها ولدت فكرة زواج لويس الخامس عشر من ابنته الصغرى يليزافيتا، وبالمناسبة فإن تلك الفكرة لم تتحقق، وعبر المفكر المعروف سان سيمون ـ وهو رجل رهيف ومتشائم للغاية ـ عن اعترافه بقيمة الضيف الرُوسي الشهير حيث قال:

ـ كل شيء فيه يشير إلى سعة معارفه، ومنطقيته الثابتة، فقد جمع بشكل مدهش للغاية، بين منتهى العظمة المتميزة بالأنفة والرقة والثبات، والتي لا تضايقه بعد أن رسخها في نفسه بوثوق، وبين التأدب الذي تتجلى فيه تلك العظمة مع الجميع على الدوام، فهو سيد في كل مكان، لكن سيادته ذات دراجات تبعًا للناس، تلك هي الشهرة التي خلفها في فرنسا حيث كان الفرنسيون ينظرون إليه نظرتهم إلى المعجزة، ولا يزالون معجبين به حتى الأن.

كانت الحرب مستمرة، ولم يكن بالإمكان إطلاقًا اعتبار الموقف في شمال أوربا سهلًا يسيرًا، دبلوماسيو بريطانيا وهانوفر يحوكون الدسائس ضد بطرس، ويؤلبون الدانمرك وبروسيا عليه، واقترح جورج الأول أن يوحد الملوك الثلاثة جيوشهم، ويطردوا الرُوس من ميكلينبورغ، إلا أن الملك فريدريك والملك فريدريك ولهلهم، رفضا بصورة باتة، فهما لا يريدان مجابهة طلب الملك السويدي وجهًا لوجه بدون مساعدة بطرس، وبالعكس طلب ملك بروسيا من القيصر أن يضاعف أفواجه المرابطة في ميكلينبورغ، فهو خائف من فقدان شتيتين وضواحيها التي حصل عليها مؤخرًا، وعند ذاك

اقترح دبلوماسيو جورج الأول على كارل الثاني عشر التحالف معه، إلا أن هذا الأخير كان يعد لمغامرة جديدة انسياقًا وراء هيرتسن، وهو مغامر من هولشتين (على غرار باتكول)، فقد خطط كارل الثّاني عشر لإنزال فيلق سويدي من عشرة آلاف شخص في اسكتلندة في ربيع ١٧١٧، لإسقاط الملك البروتستانتي جورج الأول بمساعدة اليعاقبة، وتنصيب يعقوب ستيورات الثالث على العرش، وكان يأمل في أن يساعده الملك الجديد في محاربة بطرس، حتى يستعيد قوة السويد وعظمتها، ومن جيد انتفع بطرس من تهور كارل، ولم يخف القيصر فرحته بهذه المناسبة.

ورغم الموقف السلبي الذي التزمه البلاط الإنجليزي إزاء بطرس، فقد استفاد هذا الأخير من الخلافات، وقام بعدة خطوات دبلوماسية، ورغم شلل حلف الشمال بفعل دسائس بريطانيا الساعية إلى الهيمنة على البلطيق، لم يقف بطرس مكتوف الأيدي، فقد تصرف مع الحلفاء بصدق وحذر، وأثناء اللقاء بين بطرس وملك بروسيا في هيفيلبيرغ، أكد الطرفان اتفاقية التحالف نفسها، واتفقا على الضمانات المتبادلة في الأراضي المنتزعة من السويد، وعلى تبادل المساعدة، وبالإضافة إلى ذلك وعد العاهل البروسي بتجديد معاهدة الصداقة مع ميكلينبورغ.

وفي نفس تلك الفترة، اعتبارًا من عام ١٧١٦، بدأت الاتصالات بين روسيا والسويد فيما يخص توقيع الصُلح، وتقابل مع ممثلي كارل عدة مرات كوراكين نفسه الذي غالبًا ما كان بطرس يكلفه بأعقد المهمات الدبلوماسية المسؤولة، واستمرت المقابلات في العام التالي، وفي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) أرسل القيصر، بناء على اقتراح من الملك السويدي، مبعوثين إلى آبو لإجراء المفاوضات، وهما بروس واوستيرمان، وفي توجيه إلى بروس أكد القيصر على عدم إغاظة الحلفاء مع أن تصرفاتهم أدت إلى تقويض حلف الشمال، وكان على بروس أن يخبرهم بمهمة الدبلوماسيين الرُوس المساهمين في مفاوضات آبو، وجاء في التوجيه:

ـ أنت مكلف بالاستماع فقط إلى المقترحات السويدية دون الدخول في أية معاهدات، وسوف نخبر الحلفاء بتلك المقترحات، ولن نوقع أية معاهدات مباشرة بدون موافقتهم.

وبخصوص المفاوضات التي بدأت في عام ١٧١٦، كتب شافيروف بموافقة وتكليف من بطرس «رأيا» بصدد أسباب وأهداف حرب روسيا ضد السويد، وترجم هذا المؤلف وصدر في الخارج، وعرفت أوربا منه أن القيصر يريد لروسيا أن تمتلك إلى الأبد اينغريا وليفلانديا، وايستلانديا مع ريفيل (تالين)، وكاريليا مع فيبورغ، أما فنلندة فيريد إعادتها إلى السويد، و يجب أن تراعي مصالح الحلفاء ـ بولونيا وبروسيا والدانمرك وهانوفر.

وأوصى بطرس ممثليه، بإبداء المرونة والصبر إزاء السويديين، بحيث يمكن أن يحصل هؤلاء الآخيرون ـ مقابل فقدان الأراضي في شرقي البلطيق ـ على تعويض «في الجانب الآخر»، واقترح بطرس «توقيع الصُلح بأسرع ما يمكن»، لكنه أكد في الوقت ذاته قائلاً:

ـ نحن نريد الصُلح معهم، إلا أننا لا نخشى الحرب، ومهما اقترحوا عليكم فلا تفسدوا المؤتمر بأي حال.

وفي ١٢ أيار (مايو) ١٧١٨، افتتح مؤتمر ألاند، ففي جزيرة سندشير الصخرية، إحدى جزر أرخبيل ألاند، تبادل الدبلوماسيون الرُوس والسويديون العبارات الأولى:

ـ صاحب الجلالة القيصر يرغب في الاحتفاظ بكل ما كسبه.

ـ الملك يرغب في استعادة كل ما فقده.

وبعد التصريحين انتقلوا إلى النظر في الشروط تفصيلاً، وكان العاهلان يقران كل خطوة يخطوها الدبلوماسيون، فهما يتابعان باهتمام بالغ سير المفاوضات ويوجهانها، وجرت لقاءات سرية خاصة بين المغامر هيرتس رئيس الوفد السويدي، وبين أوستيرمان المنطيق الشاطر الداهية، وفي اللقاءات المفتوحة طرح هيرتس والدبلوماسي السويدي الثاني

هيلينبورغ مسألة «البديل»، أي التعويضات الإقليمية، وحاول بروس واوستيرمان أن يفهما ما يقصده الجانب الآخر على وجه التحديد، وسرعان ما جاءت التوضيحات: تريد السويد استعادة كل الممتلكات السويدية، التي انتقلت إلى الدانمرك وهانوفر وبروسيا، علما بأنها تريد استعادة تلك الأراضي بمساعدة عسكرية من روسيا، أي أن هذه الأخيرة يجب أن تحارب حلفاءها.

زد على ذلك أنها يجب أن تعيد إلى الملك السويدي فيبورغ وكيكسولهم (كوريلا) وريفيل (تالين).

وقد انقطعت جلسات المؤتمر عدة مرات، فقد كان هيرتس يراجع الملك في استوكهولم لتلقي التوجيهات، والتجأ الرُوس إلى الوسائل المعتادة، فقدموا الهدايا الثمينة إلى هيرتس والدبلوماسيين الآخرين، وأطلقوا من الأسر سراح شقيق هيلينبورغ، وبادلوا الفيلدمارشال رينشيلد الذي وقع في الأسر في معركة بولتافا، بجنرالين روسيين وقعا في الأسر السويدي في معركة نارفا قبل ذلك، إلا أن الأمور كانت بين بين، فالداهية أوستيرمان المقرب إلى شافيروف- وهو مثله من حيث الأنانية والوصولية- قد نحى عن المفاوضات بروس، الذي هو أكثر منه نزاهة وأرفع خلفا، زد على ذلك أنه أكبر سنا وأرفع رتبة، كان أوستيرمان يتراسل سرًا مع شافيروف باللغة الألمانية، وقد اخفي الشفرة عن بروس.

إلا أن مصيبة أوستيرمان هي أن هيرتس، ذلك المغامرة الأكثر حزمًا ولا مبدئية، يلعب لعبة أكثر وقاحة ومجازفة، ففي مسودة المواد الإضافية التي قدمها إلى الدبلوماسيين الرُوسيين، طالب بتنازل أغسطس الثاني عن العرش البولوني، وعودة ستانيسلاف ليشينسكي ملكًا لبولونيا لا أكثر ولا أقل، وما يأتي أدهى وأمر: فيجب أن تزج روسيا والسويد بقواتهما في بولونيا، ويستعيد الملك كارل أراضي بوميرانيا (بما فيها شتيتين)، التي انتقلت إلى بروسيا، وتعطي تعويضات إلى الملك البروسي (بعض الأراضي البولونية)، وتساعد روسيا السويد في استعادة الأراضي

النرويجية العائدة إلى الدانمرك، والممتلكات الدانمركية في ألمانيا (وهي ممتلكات سويدية سابقًا)، وانتزاع فيردون وبريمين، وكذلك دوقية تسيل (وهذه الأخيرة تعويضًا عن الخسائر) من هانوفر، ووقفًا لهذه الخطة الحمقاء ينبغي أن تنتقل ميكلينبورغ أيضًا (بمساعدة روسيا طبعًا) إلى السويد, و يحصل مالكوها على تعويض بشكل أراض أخرى، وهكذا يتعين على روسيا أن تتحالف مع السويد، وتخصص لها مساعدة ب١٥٠ ألف جندي، وتستولى لصالح الملك على الأراضى التي ضيعها بسبب سياسته المغامرة الهوجاء, وبالتالي تدخل في مجابهة مع أوربا كلها تقريبًا، بولونيا والدانمرك وهانوفر وبريطانيا، وحليفتيها الإمبراطورية الألمانية (النمسا والمجر) وهولندة، كل ذلك مقابل أراضي البلطيق التي كسبتها روسيا من زمان، يا لها من شهية، مقابل التحالف مع بلد مستنزف خائر لم يبق من سكانه الـ ١٣٠٠ ألف نسمة سوى ٧٠٠ ألف، وليس لديه لا مال ولا طعام، وقد تقلص الانتاج فيه، وهبط إلى مستوى رهيب، إن مُركّب العظمة ظل يقود تصرفات الملك ونواياه، رغم موافقته على المفاوضات، لقد تغاضى عن الإملاق المدقع للشعب المدمر، تغاضى عن المجاعة والأوبئة، وظل الإسكندر المقدوني الجديد يعلل نفسه بالآمال، ويتصور بأنه سيجمع جيشًا، ويستعيد أمجاد السويد، وعظمتها، ويدحر أعداءه، يدحر بريطانيا بمساعدة روسيا، أو روسيا بمساعدة بريطانيا، وكأن معركة بولتافا لم تكن، ولا معركة هانكو، وكأن السويد لم تتكبد هزيمة ماحقة شاملة في الحرب.

مشروع هيرتس جنوني بقدر ما هو خيالي، وذلك بالدرجة الأولى من حيث مصالح روسيا، ولكنه، ويا للغرابة، حظي بتأييد ورضا اوستيرمان، فإن «صفقته» مع كبير مخولي الملك يمكن أن تسفر عن عواقب وخيمة للغاية، وكان شافيروف يعمل بنصائحه في الإقدام على تنازلات للسويد، أما غولوفكين رئيس مديرية العلاقات الخارجية، فلم يكن يفهم بالكامل تقارير واستيرمان المعقدة الغامضة، فهذا الأخير- على حد تعبير كلوتشيفسكي- «أخذ يتكلم بلغة الأحاجي والألغاز، حتى لم يعد

نفسه يفم ما يقول»، وكان القيصر بطرس المعجب بالألمان من خريجي الجامعات (اوستيرمان بالأصل من ويستفاليا، وقد درس في جامعة أيين)، لا يعرف عن المفاوضات إلا من التقارير المقتضبة، ولم يكن يعلم اطلاقًا بالمراسلات السرية بين دبلوماسيية الاثنين، إلا أن القول الفصل والكلمة الأخيرة بيده، ولم يكن بطرس ينوي أبدًا توقيع الصُلح بدون موافقة الحلفاء، وهذا ما أعلنه قبل بدء المفاوضات، أما مشروع معاهدة الصُلح مع كارل فيجب- في رأيه- أن يؤثر على الحلفاء في الاتجاه الصحيح: إما التعاون مع روسيا لإرغام السويد على القبول بشروط الصُلح النافعة لإعضاء الحلف الشمالي، وإما دخول الحرب ضدها من أجل الممتلكات السويدية في شمال ألمانيا، ولكن دون أن تشارك روسيا في تلك الحرب، ولم يكن القيصر في الواقع يعلق أية أهمية على مشروع هيرتس، فهو بحاجة إليه من أجل المناورة الدبلوماسية.

إلا أن كارل لم يساعد بطرس هذه المرة، بل أعاقه، فمع أن المفاوضات وصلت حسب الظاهر إلى نهاية طيبة، حتى كتب بطرس في أيلول (سبتمبر) ١٧١٨ يقول:

- نحن نعمل بعين ساهرة، ولدينا أمل.

إلا أن ملابسات غير متوقعة حدثت، وهي مرتبطة بالملك هذه المرة أيضًا، فقد قتل في النرويج أثناء حصار فريدريكسغال، وتبدلت كل الأمور، فقد استدعت الملكة أولريكا أيليونورا، شقيقة الملك الراحل، مندوبه هيرتس وزجت به في السجن، وفي آذار (مارس) ١٧١٩ قطعت رقبته، ولم يحضر المندوب الجديد ليلينشتيدت المفاوضات إلا في آيار (مايو)، وأخذ يماطل لكسب الوقت، أما الملكة فقد رفضت التنازلات الإقليمية لروسيا، وطالبت بإعادة فنلندة وايستلانديا وليفلانديا، وكانت مع مستشاريها، تأمل في عزل روسيا بمساعدة بريطانيا، واستعادة ما فقدته السويد.

في خريف وشتاء العام السابق، كان بطرس قد أوصى مبعوثية بروس واوستيرمان برفض ادعاءات هيرتس، وسعى مع ذلك إلى عدم قطع

المفاوضات مع السويد، أما الأن فهو مضطر من جديد إلى مواصلة العمليات الحربية الكبرى التي كانت متوقفة في الواقع عدة سنين، وبإيعاز من بطرس توجه اوستيرمان إلى استوكهولم، وبلغ الملكة تحذيرات القيصر: ستسعى روسيا إلى الصُلح بقوة السلاح طالما عجز الدبلوماسيون عن تحقيقه في ألاند.

لم يترك السويديون مؤتمر ألاند، لكنهم لا يريدون الاتفاق على الصُلح، فالبلاط السويدي الميال إلى بريطانيا يريد تحقيق مبتغاه، بمواصلة القتال ضد روسيا، أما بطرس فقد وضع الأن خطة جريئة، وترأس الأسطول متوجهًا إلى شواطئ السويد، وقام بإنزال عليها، ولم يجدوا أثرًا للسويديين، فإن تفوق روسيا برًا وبحرًا لا جدال فيه من زمان، وانسحبت الفصائل السويدية إلى أعماق البلاد على عجل، بينما تشن القوات الرُوسية العمليات في المناطق الساحلية، وتدمر المصانع قبل غيرها، وشن القوزاق غارات خاطفة على ضواحي العاصمة السويدية، وفي آب (أغسطس)، أمر بطرس بوقف العمليات الحربية نزولا عند طلب الجانب المقابل، ليتمكن الدبلوماسيون من مواصلة اللقاءات في ألاند، لكن تلك اللقاءات لم تسفر عن نتيجة، فتوقفت أعمال المؤتمر في أيلول (سبتمبر).

وفي الشهر ذاته ذاع نبأ توقيع معاهدة التحالف بين بريطانيا والسويد، وظهرت في بحر البلطيق عمارة إنجليزية بقيادة الأميرال نوريس، إلا أن الضغوط والتهديد والوعيد لم تسفر عن النتائج التي يتوخاها الحليفان الجديدان، فلم يكن بطرس يريد الصدام السافر مع بريطانيا، ولذا خبأ أسطوله في مرافئ محروسة بالمدافع، ولم يكن ينوي التنازل أمام الضغوط:

- لن نبعأ بأية تهديدات، ولن نوافق على الصُلح غير النَافع، لكننا سنواصل الحرب.

ولم ترتبك روسيا أمام الموقف العدائي الذي اتخذته أقوى دولة بحرية في العالم آنذاك، فقد نمت قدرة روسيا الاقتصادية والحربية لدرجة كبيرة،

وفي الخريف عادت إلى بريطانيا عمارة نوريس، التي كانت تريد تدمير الأسطول الرُوسي، وفي ربيع عام ١٧٢٠ ظهرت تلك العمارة في البلطيق ثانية، وكانت معززة بسفن إضافية، ومع ذلك قام الرُوس بإنزال جديد في السويد، وأدوا عملهم في ساحلها الشرقي، وأخبر بطرس سفيره كوراكين بذلك قائلًا:

ـ صحيح أننا لم نلحق بالعدو أضرارًا بالغة، لكن ما قمنا به، والحمد للّه، جرى أمام أنظار معاونيهم (الإنجليز من عمارة نوريس ـ ملاحظة المؤلف)، الذين لم يتمكنوا من معاونتهم بشيء.

وفي أواخر تموز (يوليو) من العام نفسه دمرت العمارة الرُوسية تدميرًا تامًا القوات البحرية السويدية الأكثر عددًا في معركة غرينهام، وأثناء القتال هاجمت السفن الرُوسية المجذافية فرقاطات العدو الأقوى بكثير من حيث التسليح، واستولى الرُوس على أربع فرقاطات، علمًا بأنه «تم الاستيلاء على اثنين منها في اشتباك بالسلاح الأبيض أثناء السير السريع»، على حد تعبير بطرس، ولم يتمكن نوريس من إعاقة الرُوس، ومساعدة السويديين بشيء، صحيح أن نوريس أحرق منزلًا وحمامًا للشغيلة في جزيرة نارغين قرب ريفيل، حيث كانت ترابط سفنه والسفن السويدية، وكتب بطرس بهذا الخصوص مازحًا إلى كوراكين ينصحه بأن ينشر في صحف أوربا الغربية نبأ هذا الانتصار العظيم، أما القيصر نفسه فقد استلم بهذا الخصوص رسالة من مينشيكوف «يواسيه» فيها مازحًا:

ـ أرجو ألا تحزنوا بخصوص حرق المنزل والحمام، الأفضل أن تتنازلوا لهم عن هذه الغنيمة كي يقتسموها: الحمام للأسطول السويدي، والمنزل للأسطول الإنجليزي.

ولم تتكلل دسائس مجلس الوزراء البريطاني في البلطيق بالنجاح، وأخفق «نظام ستينهوب» رئيس الحكومة، التي كانت تأمل في فرض السيطرة البريطانية على البحر الأبيض المتوسط والبلطيق، صحيح أن

فرنسا والنمسا وهولندة، دخلت معها الحلف الرباعي الموجه ضد أسبانيا وضد روسيا بعد التحالف الأنكلوسويدي، واتخذت النمسا موقفا نشيطًا جدًا في معاداة روسيا في هذا الحلف الرباعي، ولم تكن فرنسا تميل إلى تأييد بريطانيا في كل شيء في البلطيق، أما هولندة فقد التزمت الحياد بحكم مصالحها التجارية، وعمل ضد روسيا بالتواطؤ مع النمسا وهانوفر أغسطس الثاني، بوصفه حاكمًا لسكسونيا، فهو لا يريد أن يغفر لبطرس إبعاد قواته السكسونية من بولونيا في عام ١٧١٧.

وفي ٥ كانون الثاني (يناير) ١٧١٩، ظهرت في فينا معاهدة المساعدة المتبادلة والتحالف بين النمسا وهانوفر وسكسونيا (حلف فينا)، واتفقت هذه البلدان على بذل جهود مشتركة لإعاقة محاولات بطرس الرامية إلى احتلال بولونيا (وكأن لديه مثل هذه المخططات)، وإمرار قواته عبر الأراضي البولونية إلى ألمانيا، وكان جورج الأول الذي وقع المعاهدة بوصفه حاكما لهانوفر قد وعد - بوصفه هذه المرة ملكًا لبريطانيا - بأن يقدم أسطوله في البلطيق المساعدة إلى الحلفاء ضد روسيا، وأخيرًا وضعت تلك البلدان بنفسها شروطًا للصُلح بين السويد وروسيا: تترك للقيصر بطرسبورغ وجزيرة كوتلين ونارفا، وتؤخذ منه ايستلانديا وليفلانديا، وتسلم كييف وسمولينسك إلى بولونيا.

ولم تكن لمعاهدة فينا أهمية فعلية، فإن انتصارات السلاح الرُوسي كان لا بد وأن تؤثر على جميع الموقعين على المعاهدة، رغم الابتزاز الذي مارسوه، فتلك الانتصارات كانت تتجدد من عام لآخر في بحر البلطيق، وفي شمال ألمانيا، وفي الأراضي السويدية نفسها، وحتى في أطراف استوكهولم، أما العمليات الحربية في الأراضي الرُوسية فلم يعد لها وجود من عهد معركتي ليسنايا وبولتافا.

وقد حال جبروت روسيا دون ائتلاف قوي مثل الحلف الرباعي لأقوى الدول الأوربية، ودون زعزعة المواقع الرُوسية، فإن جيش بطرس المؤلف من مئة ألف رجل يرابط عند الحدود البولونية، وأسطوله يحرز الانتصارات في البلطيق،

إلا أن الانتصارات لا تسكر القيصر ولا تدوخ رأسه، وكشف عن ذلك مرة أخرى تكرار قضية ميكلينبورغ السيئة الصيت، ففي شباط (فبراير) ١٧١٩، احتلت قوات هانوفر وإمارة وليفينبوتيل دوقية ميكلينبورغ بقرار من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذي أخذ بنصيحة جورج الأول، وبحجة تسوية النزاع بين كارل ليوبولد، دوق ميكلينبورغ، وبين نبلائه، فرض الحظر على إدارة الدولة، ووصلت عقيلة الدوق يكاترينا أيفانوفنا، ابنة أخي بطرس إلى بطرسبورغ باكية، وطلبت المعونة من عمها، إلا أن القيصر امتنع عن التدخل متصورًا بحق أن التدخل يدفعه إلى الصدام مع أبرز دول أوربا.

ولم يكن تنازل بطرس في قضية ميكلينبورغ يعني أنه سيتراجع في المفاوضات مع السويد، ففي الحالة الأولى كانت تلك مسألة من الدرجة الثالثة بالنسبة لمصالح روسيا، مع أنها تمسه عائليًا، أما الحالة الثانية فهي تتعلق بمصالح الدولة الحيوية الهامة، ولذا أكد القيصر ثانية في توجيه جديد إلى بروس واوستيرمان (بتاريخ ١٥ آذار- مارس ١٧١٩)، على ضرورة بقاء مكتسبات روسيا في شرق البلطيق، وكان بطرس مستعدًا للتنازل بدفع مليون روبل إلى السويد مقابل ليفلانديا.

كان البلاط السويدي يعلل النفس بآمال وهمية في نجاح الخطة البريطانية «للتهدئة في الشمال»، وكان دبلوماسيوه يماطلون في المفاوضات مع الجانب الروسي، ليكسبوا الوقت، وكان الحلف الرباعي وحلف فينا يأملان في أن يتراجع بطرس أمام هذه الجبهة القوية، ونصح ملك بروسيا فريدريك ولهلم القيصر بعدم المجازفة، فالتنازلات في ألاند أفضل. لكن القيصر غير متعود على التراجع عندما يشعر بأنه قوي، والحق إلى جانبه، وبدلًا من ذلك قرر أن ينتقل إلى الهجوم، ورد على العاهل البروسي قائلًا:

- لا أرى طريقًا يمكننا من الوصول إلى الصُلح المعقول مع السويد ما عدا الصلابة.

كان يجب أن تتكلم المدافع بدلًا من الدبلوماسيين، لأن السويديين لن يفهموا شيئًا «إذا لم تستخدم المدافع»، على حد تعبير القيصر، الذي لم يقتنع بما قاله فريدريك ولهلم عن مثال أسبانيا المؤسف، حيث تمنى بالهزيمة في القتال ضد بلدان الحلف الرباعي، فإن قوة روسيا أكثر بكثير من قوة أسبانيا، وإن دخول فرنسا والنمسا في قتال ضد روسيا احتمال ضعيف، والأسطول الرُوسي لا يخشى الأسطول الإنجليزي، ولكل تلك البلدان مشاكل تشغل بالها، وقد تأكدت ثقة بطرس بأسطوله على أروع شكل في معركة غرينهام البحرية، آنذاك قامت الفصائل الرُوسية بإنزال شمالي وجنوبي استوكهولم، ودمرت ثماني مدن، بما فيها نورتشوبنغ، ثاني مدينة بعد العاصمة، و٢١ مصنعًا و١٣٦٣ قرية وغير ذلك، وتنفيذا لأمر بطرس لم يتعرض الجنود للأهالي ولم يدمروا الكنائس، وقال الأميرال أبراكسين قائد الإنزال الذي كشفت عملياته عن عجز السويد، وانعدام الحماية فيها، أن احتلال استوكهولم لا يتطلب جهدًا كبيرًا، وكان السويديون في الواقع يدفعون ثمن الفساد الذي ارتكبه جنود كارل الثاني عشر في الأراضي الرُوسية، لكن الجنود الرُوس لم يعاملوا السُكان بنفس قساوة السويديين.

كان الأسطول البريطاني بقيادة نوريس الذي عولت عليه السلطات السويدية يمخر مياه بحر البلطيق، ولم يصل إلى استوكهولم إلا بعد أن غادرت سفن الإنزال الرُوسية المياه السَاحلية، صحيح أن دبلوماسيي جورج الأول كانوا يعملون في كافة أرجاء أوربا ضد مصالح روسيا، وقد اجتذب دبلوماسيو بريطانيا، وهانوفر كل أنصار روسيا إلى جانبهم، ووقَّعت السويد معاهدات مع بريطانيا وهانوفر وبروسيا والدانمرك، ومع أن أغسطس الثَّاني لم يوقع اتفاقية، فقد أجرى مباحثات مع السويد بشأن التحالف ضد روسيا (ولم يتم التحالف، لأن بولونيا لم ترغب في محاربة روسيا، وما كان بوسعها أن تحاربها).

وفي ١٧١٩ـ١٧٢٠، وجدت روسيا نفسها في عزلة دبلوماسية، والأكثر من ذلك أن بطرس تلقى من مختلف البلدان تقارير ممثلية بشأن التحضير

لهجوم مسلح على شرق البلطيق، بل وعلى روسيا، وكان ينتظر أن تشترك في هذه العملية الهائلة أساطيل بريطانيا والسويد وبلدان أخرى، وجيوش السويد والنمسا وبروسيا والإمارات الألمانية، وتمولها فرنسا وبريطانيا، وفي الوقت ذاته تشن الأستانة العمليات الحربية في جنوب روسيا، وتلبدت الغيوم الرهيبة في سماء روسيا على ما يبدو...

ورغم الضجة التي أثارها خصوم روسيا، فقد كان يعوزهم الإجماع، كانت هناك تناقضات بين فرنسا وبريطانيا، وكذلك بين البلدان الأوربية الأخرى، كلها لا تميل إلى شن عمليات حربية نشيطة ضد القيصر الرُوسي، بل تفضل دفع المال(حيث تسدده بشكل قروض، أو مقابل المدن والأراضي السويدية، التي انتقلت إلى تلك الدول في شمال ألمانيا)، أما الأسطول الإنجليزي القوي، فإن استعراضاته في البحر أثناء عمليات السُفن الرُوسية، والإنزال قرب استوكهولم، كشفت عن زيف وعود البلاط البريطاني، وكانت لأبرز بلدان أوربا مصلحة في التجارة مع روسيا، والأكثر من ذلك أن مطالب وادعاءات الحلفاء الجدد للسويد التي فقدت بتوقيع الاتفاقيات الجديدة أكثر مما كسبت، كانت تستهدف خلق انطباع مناسب عند الملكة ووزرائها، ولم تترك تلك المطالب انطباعًا عند بطرس وروسيا، فقد ظل القيصر ووزراؤه ودبلوماسيوه يواصلون سياسة حكيمة حذرة وموزونة، وقدم كوراكين في تقاريره إلى بطرس تحليلًا دقيقًا للموقف في أوربا، وتقدم بنصائح حكيمة فيما يخص نهج روسيا في التعامل مع بريطانيا وهولندة وبولونيا والبلدان الأخرى، وهو يعتقد أن الوقت في صالح روسيا، فالحلف الرباعي سيتقوض من كل بد حال ما ينتهي النزاع بين الدول المنضمة إليه، وبين أسبانيا، ولا تريد البلدان الأوربية حربًا سافرة ضد روسيا، و يجب المتاجرة مع تلك البلدان والاحتفاظ بعلاقات ودية معها.

وقد أخفقت خطة الحملة المشتركة الكبرى على روسيا، حال ما وصل مبعوثوا ملكة السويد إلى بلاطات أوربا لوضع توصيات عملية، واتضح أن خطة «التهدئة في الشمال»، مجرد وهم بالنسبة للسويد، لقد

ضيعت أراضيها في شمال ألمانيا نهائيًا عندما وافقت على أدراجها ضمن أراضي حلفائها الجدد، لكن هؤلاء الحلفاء لم يستطيعوا أن يحولوا دون هجوم الإنزال الروسي على أراضي السويد نفسها، بل لم يكونوا، على ما يبدو، يريدون الدخول في نزاع مع روسيا معتبرين هذه القضية صعبة وليس فيها نفع كبير، ولم يكن بطرس هو الآخر يريد المخاطرة، فبأمر منه تفادى الأسطول الروسي الصدام مع عمارة نوريس، أما القلاع والمرافئ في ساحل البلطيق، والتي غدت روسية من زمان، وكذلك العمارتان قرب ريفيل وكرونشتادت، فقد كانت على أهبة الاستعداد التام للقتال، وبعث الأميرال أبراكسين رسالة إلى الأميرال نوريس، نصحه فيها بإبعاد سفنه عن السواحل الروسية «مسافة مناسبة»، واعتبر الأميرال الإنجليزي هذه النصيحة معقولة، وعلى أية حال فلم يبد أثرا للشراسة، والرغبة في الحرب.

وفي عام ١٧٢٠ نفسه، تقوض الحلف الرباعي على مرأى من أوربا، فقد وضعت الحرب ضد أسبانيا أوزارها، وبدأت المفاوضات معها، وراحت النمسا وفرنسا تجسان النبض لأجل التحالف مع روسيا، ولمح البلاط في فرساي إلى عدم اعتراضه على تسليم جبل طارق إلى أسبانيا، وليست هناك رغبة إطلاقًا في الانضمام إلى عملية حربية مشتركة ضد روسيا، فقد اقترحت فرنسا على بطرس أن تتوسط في المفاوضات مع السويد، وفي هذه المرة تبقى بريطانيا في عزلة حسب الظاهر، وذهبت سُدى كل نشاطات دبلوماسييها، واستعراضات عمارة نوريس التي كلفت الدولة ٦٠٠ ألف جنيه استرليني.

صحيح أن العلاقات بين روسيا والباب العالي تأزمت في أواخر عام ١٧١٩، حتى بلغ الأمر حد طرد داشكوف السفير الروسي فوق العادة من الأستانة، وكان لدسائس السفير الإنجليزي ضلع في ذلك، فقد كتب داشكوف إلى القيصر يقول:

ـ لم أكن أتصور مطلقًا عدوًا لجلالتكم ألد من الملك البريطاني، فإن وزيره يحاول كل يوم أن يسبب لي أذى ما.

إلا أن الخلاف الدبلوماسي سُويَ بمساعدة السفير الفرنسي ديبوناك، حتى أن روسيا والإمبراطورية العثمانية وقعتا في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر)١٧٢٠، معاهدة السلام الدائم، وباءت بالفشل نوايا بريطانيا في تأليف الأستانة ضد روسيا، وحصل الشيء ذاته مع بولونيا، فإن حكامها الذين استلموا أموالًا طائلة من الإنجليز والسويديين والسكسونيين، رفضوا القتال ضد جيوش بطرس، فإن تأييد بطرس، وهم يفهمون ذلك جيدًا، يؤمن سلامة ووحدة بولونيا التي تطمع في أراضيها الدول الجرمانية المجاورة، وهم أغسطس الثاني الذي أخفقت مخططاته هذه المرة أيضًا بأن يهدد بطرس بأذى يمكن أن يسببه له هو الملك، واقترح العودة إلى جادة الصداقة، وردًا على ذلك تلقى الحليف الخائن جوابًا فاترًا متزنًا لائقًا من القيصر الروسي.

ـ عندما تقترح استئناف الصداقة لا يليق بك أن تستأنف أعمالًا تثير الإشارة إليها نفور جلالة القيصر لا غير... فإن جلالة القيصر لم يتعود على السماح لأحد، أي كان، بأن يخيفه بالتهديد والوعيد.

ومنيت بالفشل خطة «التهدئة في الشمال»، وراح واضع هذه الخطة التي هيئت طوال خمسة أعوام كاملة، وكذلك وزراء حكومته، ينصحون السويد بأن تتفق بنفسها مع بطرس حول توقيع الصُلح، فالبلد الذي دمر واستنزف من زمان لكنه ظل بالاعتماد على نصائح السَاسة الإنجليز وغيرهم، يواصل عبثًا طوال عشر سنين حربًا ميئوسًا منها ضد روسيا، قد عاد بخفي حنين، وراح زعماؤه يتكلمون من جديد عن الصُلح مع بلد اقترح الصُلح، وأراده من زمان، واتخذ مجلس الدولة في السويد قرارًا ببدء جولة جديدة من المفاوضات، وراح حلفاؤها والمتكرمون عليها من بريطانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة وغيرهما، يتنافسون في عرض خدماتهم للتوسط بينها وبين روسيا، ووزع المبعوثون الدبلوماسيون الرُوس في بريطانيا مذكرات تحدثت عن الدور المشين الذي لعبته هانوفر وحكامها، وهو الأن ملك بريطانيا، فيما يخص الممتلكات السويدية في ألمانيا،

وخرق الالتزامات التي أخذها على عاتقه، واستاء جورج الأول اشد الاستياء، وطُرد الدبلوماسيون الرُوس من لندن الواحد أثر الآخر، وفي بداية شتاء ١٧٢٠، حصل في الواقع انقطاع في العلاقات بين البلدين، إلا أن بطرس سمح للإنجليز بدخول روسيا والمتاجرة معها كالسابق، وقد تصرف كسياسي قوي واثق من نفسه، ويمكن أن يتعلم على يده الأن أساطين السياسة الخارجية الذين درس الرُوس، وفي مقدمتهم بطرس نفسه، فن الدبلوماسية على أيديهم في وقت غير بعيد نسبيا.

وبعث الملك السويدي فريدريك الأول طلبًا إلى بطرس بإجراء مفاوضات الصُلح بدون وسطاء، واستلم القيصر رسالته في تشرين الأول (أكتوبر)، وفي الوقت ذاته اقترح بلاط فرساي الوساطة، فقبل بطرس هذا الاقتراح، لأن السَاسة الفرنسيين كانوا من ذلك الحين يخططون لتحالف مع روسيا، وكان من الحكمة إرضاء رغباتهم، ووصل كامبريدون السفير الفرنسي في استوكهولم إلى بطرسبورغ، ومعه مبالغ ضخمة لرشوة الدبلوماسيين الرُوس، لكن هؤلاء لم يأخذوا المال، وليس ذلك بسبب نزاهتهم، بل لخوفهم من غضبة بطرس الذي لا يطيق مثل هذه الأمور، فيراقب معاونيه بعين ساهرة، وبدأ كامبريدون مباحثات الوساطة: تحتفظ روسيا، حسب اقتراحه، ببطرسبورغ ونارفا واينغريا، لكنها تعيد إلى السويد ايستلانديا وليفلانديا وفيبورغ وإلخ... وعندما سمع الدبلوماسيون الرُوس هذا الكلام «قهقهوا بأعلى أصواتهم»، على حد تعبير السفير الذي كتب عن ذلك إلى بلاطه مغتاظًا، وفي اللقاء مع بطرس الذي جاء من حوض بناء السفن في قمصلة البحارة، وتفوح منه رائحة الأصماغ (فقد شارك في التحضير لإنزال سفينة إلى الماء)، كرر كامبريدون الشيء ذاته، وقال إن القيصر سيشتهر بطيبة قلبه إزاء عدو مقهور، لكنه مني بالخيبة والفشل هنا أيضًا، فقد أوضح القيصر صراحة أنه غير مهتم بالشهرة الشخصية، بل بشيء آخر، فهو لا يستطيع أن يسلم ما كلف روسيا وشعبها ذلك القدر الكبير من الجهود والدماء والأموال، ولم يحقق السفير الفرنسي شيئًا، لكنه رأى بأم العين أمرًا هامًا، رأى القيصر ـ النجار، والبوارج الرُوسية الكبيرة تنزل إلى الماء الواحدة تلو الأخرى من قواعدها في حوض الأدميرالية.

عـاد كامبريدون إلى اسـتوكهولم ، وعلـم منه الزعماء السـويديون، وكذلك كارتريت السـفير البريطاني في السـويد، ما كان المفروض أن يفهمـوه من زمان، فإن بطرس لن يقدم على التنازلات، وأن السـويد ينبغي أن توقع الصُلح تفاديا لما هو أسـوأ، فإن روسـيا يمكـن أن تطالب بتنازلات أكـبر وتحقق ما تريد، فلديها قوات كافية، وخرج السـفير الفرنسـي من زيارة العاصمة الرُوسية باستنتاج صحيح:

ـ لو عاش هذا القيصر عشـر سـنوات أخرى، في حالة حرب أو سـلم لا فرق، فـإن جبروته يغدو خطـرًا حتى على أبعد الدول، ومع أنـني أمضيت هنا وقتًا قليـلًا، لكنني أسـتطيع أن أقول مؤكـدًا أنه يتصرف مـع الأجانب بحذر، ليحقـق مصالحـه فقط ويبلغ هدفه، ومهما كان اسـتقباله لهم، سـواء في علاقات ودية أو لأغراض تجارية، فإنهم لن يحصلوا منه على أية منافع، إلا إذا كان القيصر واثقًا من أنها ضرورية له.

وهكذا نرى الدبلوماسـيين الفرنسـيين والإنجليـز، الذين كانوا لأمد غير بعيد يسـتهينون بزملائهم الرُوس في المهنة وبالقيصر الرُوسـي، صاروا الأن يقـدرون مواهبهم وحذقهـم ومهارتهم حق قدرهـا، ويعـترفون بأن لديهم سـندًا متينًـا هو قـوة البلد الجبـار، قوة الشـعب، ولذا يجب أن يحسـب لهم حساب (شئنا أم أبينا).

وفي مدينـة نيشـتادت الفنلنديـة التقى بـروس واوسـتيرمان من جديد مع الدبلوماسـيين السويديين في ٢٨ نيسـان (أبريل) ١٧٢١، وكان البلاط المملوكـي البريطاني، فضلًا عن السـويدي، في عجلة من الأمر بخصوص الصُلح، وكان تونسـيند، خليفة ستينهوب الذي توفي في كانون الثاني (ينايـر) من العام ذاته، قد أثبت من زمـان في مجلس الوزراء البريطاني أن من غـير الجائز في العلاقات مع روسـيا الأقدم على المخاطرة، لا سـيما المغامرة، فهـو يـؤدي إلى الحرب معها، ومع ذلك سـارت المفاوضات بشـق الأنفس، فإن استمرارية التعنت والغطرسة الموروثة عن كارل الثاني عشر، لا تزال تفعل فعلها.

وكان بطرس يتوقع ذلك، فجعل الجيش والأسطول على أهبة الاستعداد، وقام الروس بإنزال جديد (٥ آلاف جندي وقوزاقي)، وهدوا المصانع والمستودعات والسفن السويدية، ولم تتمكن القوات السويدية من إبداء مقاومة جدية، ولم يحرك نوريس وعمارته ساكنًا، ولم يخطط القيصر لعمليات كبيرة، لأن ما تحقق فيه الكفاية برأيه، وفي حزيران (يونيو) استقبل في بطرسبورغ بحفاوة وترحاب كارل ـ فريدريك دوق هولشتين، فهو ابن أخ كارل الثاني عشر، وله حق في عرش السويد، لا سيما وأنه طلب يد آنا ابنة بطرس الكبرى، واستولى على فريدريك الأول واولريكا ـ ايليونورا قلق شديد.

وراح بطرس يوجه في نيشتادت مخوليه، ويبعث إليهم شروط الصُلح، وشروحًا لها، بالإضافة إلى الرسائل والمذكرات، وبعث إليهم من ريفيل وريغا وروغرويك وهيلسينغفورس توجيهات وإيعازات جديدة، ودرس تقاريرهم، ورغم تعنت ممثلي السويد الذين أعلنوا بأنهم «لن يوقعوا المعاهدة حتى لو قطعت أيديهم» (وفقًا للشروط الروسية)، فقد وقعوا في آخر المطاف، وكانوا في بادئ الأمر قد طالبوا روسيا بإعادة كثير من الأراضي والمدن، حتى بطرسبورغ، أما في النهاية، فقد وافقوا على التنازل عن ليفلانديا إلى الأبد، مع أن بطرس وافق في مؤتمر ألاند على امتلاكها مؤقتًا (لمدة ٤٠ أو٢٠ عامًا)، إلا أن روسيا أعادت فنلندة إلى السويديين، ووافقت على تسديد مليوني روبل تعويضًا عن ليفلانديا، وعدم إدراج بند في نص المعاهدة حول ادعاءات حاكم هولشتين، والسماح للسويديين بشراء القمح من روسيا بدون رسوم جمركية، وقال بطرس بحق:

ـ اقترحت على أخي كارل الصُلح من جانبنا مرتين، مرة اضطرارًا ومرة بطيبة خاطر، لكنه رفض في كلتا الحالتين، أما الآن فليوقع السويديون معي مكرهين صُلحًا شائنًا بالنسبة لهم.

وفي سياق المفاوضات طالب السويديون «ببديل» عن فيبورغ، وأوعز بطرس إلى دبلوماسييه بأن يجيبوا كالآتي:

ـ ليست عندنا أراض فائضة عن الحاجة.

ورد القيصر بسرعة وحزم على مسألة التنازل عن بطرسبورغ:

ـ فيما يخص مشروع الدبلوماسيين السويديين حول تنازلاتهم لنا، وقولهم بأنهم يتنازلون لنا عن بطرسبورغ، يجب أن تعلنوا لهم أثناء التوقيع بأنه لا موجب لذكر بطرسبورغ لأنها لم تكن من مملتكاتهم.

ورفض طلب السويديين بترك جزيرة ايزيل لهم، وأشاد القيصر (في رسالة إلى أبراكسين) بتأثير الإنزال الروسي الجديد في السويد:

ـ الدبلوماسيون السويديون غدوا أكثر تساهلًا مما كانوا قبله.

ولهذا السبب ألغي الحملة الجديدة التي كان مقررًا شنها في نفس الاتجاه، وأخبره بروس عن قرب توقيع المعاهدة، فقال بطرس مستخدمًا التعابير البحرية:

ـ ريح مؤاتية تهب علينا من نيشتادت.

وحذر القيصر بروس واوستيرمان قائلًا:

ـ لي الحق أن أكون أول من يحمل هذا النبأ إلى بطرسبورغ، لأنني أكثر من جد واجتهد في هذه الحرب، ولذا لا تسمح لأحد أن يأتي بهذا النبأ سواي، ولا يبعث أحد من رجالنا رسائل رسمية من المؤتمر حول هذا الموضوع.

كانت لدى القيصر الشغيل المحارب كل المبررات للتمتع بميزة المبادرة إلى تبليغ العاصمة والدولة بالخير المفرح، خبر انتهاء الحرب المرهقة الطويلة الأمد (٢١ عاما) التي وضعت أوزارها أخيرًا بنصر كبير رائع لروسيا، فالمعاهدة التي وقعت في نيشتادت في ٣٠ آب (أغسطس) ١٧٢١، أذاعت نبأ حلول السلام الأبدي بين السويد وروسيا، وحصول هذه الأخيرة بالكامل، وإلى الأبد على اينغريا على السَّاحل الجنوبي للخليج الفنلندي، وقسم من كاريليا، وكامل أراضي ايستلانديا، وكوريلا (كيكسهولهم)، وجزيرتا ايزيل وداغو، وكان ذلك نصرًا مبينًا لسياسة بطرس الخارجية ودبلوماسيته، وحصيلة طال انتظارها لحرب نعتها القيصر «بالمدرسة ذات المراحل الثلاث».

كان بطرس محقًا عندما قال: إن «أمنا روسيا لم تحظ أبدًا بمثل هذا الصُلح النافع»، حقًا, فاثناء النصر في معركة بولتافا، كان يتحدث عن ضرورة احتفاظ روسيا بقلعة نارفا وبطرسبورغ مع قليل من الأراضى المستنقعة حولها، أما الأن فقد حصلت على ما لم يكن بوسعها أن تحلم به في تلك الحقبة، لقد ساعد اقتران البسالة، والمواظبة مع رباطة الجأش والحذر، على حل المشكلة الوطنية التي وضعها التاريخ أمام الدولة الرُوسية، وكان صُلح نيشتادت انتصارًا ليس فقط على السويد، بل وعلى كل بلاطات أوربا بما فيها من دسائس وتفنن في العدل.

وفي ٣ أيلول (سبتمبر) عندما كان بطرس في طريقه إلى فيبورغ، بلغه نبأ توقيع الصُلح، واستلم مظروف نص المعاهدة الذي جلبه رسول من نيشادت، ولم يتسن الوقت حتى لترجمته، فقد كان بروس واوستيرمان في عجلة من أمرهما، وكتبا إلى القيصر يقولان:

لم يسعفنا الوقت للترجمة، فقد كنا نخشى أن يذيع نبأ توقيع الصُلح، أوى بطرس إلى فراشه صامتًا، دون أن يتفوه بكلمة إلى مرافقيه, مع أن الرغبة تتحرقه في إبلاغهم، لكن النعاس لم يجد إليه سبيلًا، ففي ذهنه وأمام ناظريه مرت تباعًا سنوات حرب الشمال....

وفي صباح اليوم التالي، توجه في سفينة شراعية إلى بطرسبورغ، وعندما ولجت السفينة المدينة من خلال نهر نيفا، أمر بأطلاق نيران المدفعية, وبين اطلاقات المدفعية كان يصيح فرحًا أمام الناس الذين اجتمعوا على ضفتي النهر أن الصُلح قد تم، وطوال النهار جاب شوارع المدينة فرسان يحملون الرايات البيضاء، ونافخو الأبواق، وقارعو الطبول, وبين أصوات الأبواق وقرع الطبول كانوا يذيعون على السكان نبأ توقيع الصُلح، وازدحمت العاصمة من جديد بحشود الأهالي المستبشرين، واطلقت قذائف التحية، واتقيمت الألعاب النارية، والحفلات الراقصة، ومهرجانات الأقنعة، احتفالًا بفرحة انتهاء الحرب. وكان القيصر في بدلة البحارة الهولندية يقرع الطبل بحماس، ويرقص على المنصات، وينشد الأغاني مع الجميع، ويفرح ما

شاء له الفرح، ولم يكن يخفي مدى سعادته في ذلك اليوم، ويقول إن هذه الفرحة بالنسبة له أعظم فرحة على وجه البسيطة.

وفي ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر)، جرت مراسيم جديدة مفرحة أيضًا بالنسبة للقيصر، ففي جلسة مهيبة للسينات طلب غولوفكين باسم أعضاء المجلس من القيصر أن يتقبل لقب «أبو الوطن، وإمبراطور روسيا بطرس الأكبر»، ووقّع النداء المقدم إليه بهذا الخصوص كل أعضاء السينات التسعة، وبذلك غدت روسيا رسيمًا إمبراطورية، وغدا قيصرها أمبرطورا لدولة هائلة جبارة صارت في عهد بطرس في عداد الدول العالمية الكبرى.

لقد حلت قضية الشمال، قضية البلطيق، أما قضية الجنوب، منطقة البحر الأسود، فقد تعثرت، وتم حل مشكلة البحر الأسود في عهد خلفاء بطرس، في عهد يكاترينا الثانية وبوتيومكين، لكن ذلك لا يعني مطلقًا أن بطرس لم يكن مهتمًا بالاتجاه الجنوبي والشرقي في سياسة روسيا الخارجية، فالحياة نفسها ما كانت لتسمح بعدم الاهتمام بهذا الاتجاه، فتارة كانت الحاجة تدعو إلى درء خطر الحرب مع الإمبراطورية العثمانية، وتارة إلى صد غزوات عساكر القرم والنوغاي وتتر كوبان، المدمرة للمدن والقرى الروسية الجنوبية والإوكرانية، وتارة إلى ترميم مصانع جنوب الأورال التي دمرها البدو الرحل، وقد تطلبت مصالح المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية في روسيا، بل ومصالح الدولة كلها، إقامة علاقات دبلوماسية مع البلدان المجاورة، وتطوير التجارة معها، فإن روسيا ليست مجرد بلد أوربي، إنها أيضًا بلد آسيوي، تنبسط أراضيه حتى المحيط الهادي والمحيط المتجمد الشمالي، وحتى آسيا الوسطى وإمبراطورية الصين، وكان التجار الإنجليز والهولنديون والبرتغاليون يمارسون قبل ذلك، ولأمد طويل نسبيًا، تجارة الترانزيت مع البلدان الآسيوية عبر أراضي روسيا، أما الأن فقد حان الوقت لضبطها، وهيأت موانئ البلطيق التي حصلت عليها روسيا بنتيجة حرب الشمال الفرصة للقيام بذلك.

ولم تكن لروسيا علاقات دبلوماسية دائمة مع جيرانها الجنوبيين الشرقيين، فالعلاقات مع الصين وحيوى وبخارى كانت ذات طابع وقتي، في عام ١٦٨٩، وقّعت مع إمبراطورية الصين معاهدة في نيرتشينسك الواقعة وراء البايكال، واضطرت روسيا إلى التنازل عن بعض الأراضي التي استثمرها الرواد الرُوس حتى ذلك الحين، وكانت لروسيا علاقات تجارية أيضًا، وجرى تجهيز بعثات في الاتجاه الجنوبي، ففي عام ١٧١٤، توجه العقيد بوخولتس مع رفاقه إلى جنوب نهر أرطيش، وأسس هناك مدن أومسك وسيميبالاتينسك وأوستد كامينوغورسك وغيرها، وبعد عامين توجهت فصيلة من ثلاثة آلاف شخص برعاية الأمير الكاباردياني بيكوفيتش، بإيعاز من بطرس الأكبر إلى آسيا الوسطى من جهة استراخان على نهر الفولغا هذه المرة، وأسس قلعة عند خليج كراسنوفودسك على الساحل الشرقي لبحر الخزر، ثم توجه بيكوفيتش إلى حيوى مبعوثًا رسميًا عن بطرس الأكبر، لإقامة علاقات دبلوماسية معها، ومن هناك توجه إلى بخارى للاستفسار عن الطرق التجارية المؤدية إلى الهند، وقد قوبل بعداء، حيث هاجمته فصيلة من عساكر حيوى مكونة من ٢٠ ألفا عند البحيرة، لكنها منيت بهزيمة، ومع ذلك حقق الخان شيرغازي مبتغاه، فقد دعا بيكوفيتش إلى حيوى، وجرى تقسيم فصيلته إلى خمسة أقسام، أنزلت في عدة مدن، وسرعان ما قتل الأمير نفسه ورفاقه بسيوف حيوى.

أما بعثة بينيفيني التي أرسلها بطرس إلى بخارى، فقد أقامت هناك بسلام عدة سنوات، وجمعت معلومات هامة عن البلاد، إلا أن هذه البعثة وغيرها (مثل المهمة التي أوكلها الإمبراطور، قبل وفاته بقليل إلى بيرينغ، للاطلاع على الأراضي والبحار التي تتجاور فيها قارتا آسيا وأميركا وتقتربان إحداهما من الأخرى)، كانت قد رسمت مهمات السياسة الخارجية الروسية للمستقبل، وليس للحاضر.

واتسمت بأهمية عملية أكثر من ذلك حملة بطرس على بحر الخزر، وكان الغرض منها السيطرة على الأراضي الساحلية القديمة لبحر الخزر،

وإضعاف التوسع العثماني في المنطقة، وكذلك توسع أتباع العثمانيين من حكام القرم وتتركوبان وغيرهم، وإقامة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة، وكانت عمليات الباب العالي في منطقة بحر الخزر والبحر الأسود تعود بقدر كبير إلى دسائس الدول الأوربية الغربية ضد روسيا، ووضع بطرس بصورة تفصيلية برنامجًا جريئًا لحل مشكلة الجنوب، وبدأ بتنفيذه، واستدعى تنفيذ هذه الخطة موقع الدولة جغرافيا، وحاجات تطورها، ولم تكن انعكاسًا لسياسة استعمارية تنتهجها روسيا، وبطرس كما كتب البعض في الغرب، ويكتبون خطأً في بعض الأحيان.

في عام ١٧١٧، وصل فولينسكي مبعوث القيصر إلى أصفهان، ولم تسفر عن نتيجة مباحثاته مع الشاه حسين ووزيره، والاقتراح بشأن إقامة علاقات الصداقة، وفي عام ١٧٢٠ عين القيصر فولينسكي نفسه متصرفًا في استراخان، وكلّفه ببناء السفن البحرية، والتأكد من طرق إبحارها المحتمل على امتداد السواحل الغربية لبحر الخزر، وتوجه الكابت باسكاكوف إلى بلاد فارس، ودرس الموقف في القوقاس، كان بطرس يعرف من زمان أن الأرمن والجورجيين والكاباردينيين ينتظرون المساعدة من روسيا، بعضهم يريد دعمًا في مقاتلة الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس، وبعضهم الآخر يريد الانضمام إلى روسيا.

وقد تأزم الموقف في بلاد فارس، فقد مني الشاه حسين بهزيمة على أيدي الأفغان، وحل محله ابنه طهماز ميرزا، فطلب مساعدة من بطرس الأكبر، وفي ١٨ تموز (يوليو) ١٧٢٢، بعد عام تقريبًا من انتهاء حرب الشمال، أبحر الإمبراطور الرُوسي على رأس قوات من ٢٢ ألفا من مدينة استراخان، وتحركت برا تسعة آلاف فارس قوزاقي وتتري، وفي أعقاب احتلال دربند عاد بطرس إلى استراخان، وقاد القوات الجنرال ماتيوشكين، وفي كانون الأول (ديسمبر) احتلت هذه القوات ريشت، وفي تموز (يوليو) ١٧٢٣ دخلت باكو.

وأثارت أنباء عمليات بطرس وقواته في غرب بحر الخزر استياء شديدًا في الأستانة، وبذل السفير البريطاني قصارى جهده لتأجيج ذلك الاستياء، وهدد العثمانيون بشن الحرب على روسيا، وأعلنوا أن شعوب القوقاس المسلمة من اتباع الإمبراطورية العثمانية وأن بلاد فارس تطلب المساعدة من الباب العالي، ولم يرتعب بطرس لتهديدات الباب العالي، لكنه يريد تسوية النزاع بالطرق الدبلوماسية.

وعلق القيصر آمالًا جدية على نيبلويف سفيره في الأستانة، فهذا الرجل الفطين الواسع الاطلاع، المنحدر من عائلة نبيلة تعرضت للفقر، قد حظى باهتمام القيصر لتفوقه في الدراسة بالأكاديمية البحرية في بطرسبورغ وفي البندقية وأسبانيا، وأدى الامتحان جيدا في شؤون بناء السفن، وقد امتحنه القيصر نفسه، وامتدحه، وأضاف قائلًا:

ـ انظر، يا أخي، إلى يديّ الجاسئتين مع أني قيصر، والسبب هو أني أريد أن أعرض عليكم مثالًا تقتدون به، لأرى قبيل الشيخوخة على الأقل معاونيين لائقين وخدما للوطن.

ذات مرة أثناء العشاء في أحد أيام ١٧٢١، ذكر بطرس لرجاله أنه بحاجة إلى شخص ملم باللغات الأجنبية لإرساله سفيرًا إلى الأستانة، فأجاب غولوفكين بأنه لا يعرف شخصًا لائقًا بهذا المنصب، لكن الأميرال أبراكسين وجد مخرجًا، فقال:

ـ أنا أعرف شخصًا لائقًا جدًا، لكن المصيبة أنه فقير للغاية.

ـ الفقر ليس مصيبة ـ اعترض القيصر ـ فيمكن مساعدته بسرعة، ولكن من هو؟

ـ ها هو واقف خلفك.

ـ الواقفون خلفي كثيرون.

ـ ذاك الذي امتدحته في بناء السفن.

ـ صحيح ما تقول ـ التفت بطرس ورأى الرجل الذي يعنيه الأميرال ـ لكنني أردت له أن يبقى عندي.

لكن بطرس، رغم ولعه ببناء السُفن الذي يتقنه نيبلويف جيدًا، أرسله بعد حين إلى الأستانة، وعبر نيبلويف عن امتنانه الخالص للقيصر على هذه الثقة وركع أمامه، فجعله بطرس ينهض وكان راضيًا عنه، وقال مودعًا:

ـ لا تركع، يا أخي، حكمي من عند اللّه، وواجبي أن أراقب الأحوال كيلا يمنح شيء لمن لا يستحقه وكيلا يؤخذ شيء من مستحقه، وإذا كنت ستفعل خيرًا، فللوطن وليس لي، وإذا أسأت فسأطالبك لأن اللّه سيطالبني بدلًا عنكم جميعًا بألا يتمكن الشرير والغبي من الإساءة، فأخدم بإخلاص.

وتعين على نيبلويف الأن أن يخدم الوطن فعلًا، و يحول دون تطور الأحداث بشكل غير مرغوب فيه في العلاقات مع الباب العالي، الذي بعث حكامه عساكرهم إلى القوقاس، لكن بطرس أمر بعدم تقليص عمليات جيشه في بحر الخزر، بل أوعز إلى جيشٍ آخر بالاستعداد لصد هجوم العثمانيين تحوطا للطوارئ.

وأبلغ نيبلويف السُلطان العثماني بتصريح الإمبراطور الرُوسي:

ـ نحن نوفر الحماية للشعوب التي لا علاقة لها بالباب العالي مطلقًا، وتبعد عنه كثيرا، وتتواجد على بحر الخزر، الذي لا يجوز أن نسمح لأية دولة أخرى بالوصول إليه.

كان ذلك تحذيرًا خطيرًا اعتمد عليه نيبلويف في إجراء المفاوضات، وساعده السفير الفرنسي، وردًا على حجج العثمانيين القائلة بأن الشعوب المسلمة في القوقاس يجب أن تكون تحت حماية الأستانة ذكّرهم السفير مصيبا بالشعوب المسيحية الواقعة تحت سيطرتهم في البلقان.

وفي تلك الأثناء وقّع سفير بلاد فارس في بطرسبورغ في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) ١٧٢٣، معاهدة نصت على إدراج الساحل الغربي والساحل الجنوبي لبحر الخزر، وبضمنهما مدينتا درنبد وباكو وغيرهما، ضمن الأراضي الرُوسية، واتفقت روسيا وبلاد فارس على تشكيل حلف دفاعي ضد الإمبراطورية العثمانية، وفي أعقاب ذلك أخذ السُلطان ومستشاروه يقرقعون بالسلاح ويهددون نيبلويف بإعلان الحرب على بلاده، لكن نيبلويف لم يتراجع فطردوه من الأستانة، ولم يودعوه سجن الأبراج السبعة كما فعلوا بالسفير تولستوي في حينه، وقبل أن يتمكن من جمع حاجياته استدعاه الصَدر الأعظم، وأعلن له أن ما حدث هو «سو تفاهم»، وأن المفاوضات ينبغي أن تستمر، وفي ١٢ حزيران (يونيو) ١٧٢٤، وقّع الطرفان في الأستانة معاهدة، اعترف الباب العالي بموجبها بضم الأراضي المتأخمة لبحر الخزر إلى روسيا، التي اضطرت إلى القيام بالشيء ذاته فيما يخص الأراضي القوقاسية التي انتزعتها العثمانيون من بلاد فارس، والحقوها بممتلكاتهم، وتخلى السُلطان العثماني عن أطماعه في بلاد فارس.

وبذلك حصلت الحدود الجنوبية الشرقية لروسيا على أمان أكثر، زد على ذلك أنه أمكن زحزحتها إلى الجنوب، وتعززت مواقع روسيا في القوقاس، وهيأ ذلك فرصا جيدة لشعوب المنطقة فيما يخص تأمين مستقبلها.

كانت الأعمال في ميدان السياسة الخارجية، والعمليات الحربية في الجنوب والشرق، دليلا آخر على تزايد دور روسيا، في السياسة العالمية إبان حرب الشمال وفي أعقابها، لكنها دون شك، ذات أهمية محدودة لذاك الزمان بالمقارنة معها، إلا أنها رسمت مهمات المستقبل، وفي السنوات الأخيرة من حكمه، غدا بطرس الأكبر ليس شخصًا مستجدًا متهيبًا في السياسة والشؤون الحربية، بل رجلًا حاذقًا محنكًا في عمله، وحاكمًا قويًا رزينًا وحكيمًا بعيد النظر لإمبراطورية هائلة، ومما له دلالته أن ملك بروسيا فريدريك ولهلم، وملك بولونيا وسكسونيا أغسطس الثاني، اللذين

حرضهما رجلا المال المحتالان ليمان ومائير، قد طرحا على بطرس مسألة تقسيم بولونيا، واقترحا أن تنضم إلى روسيا أراضي بيلوروسيا، وهي أرض روسية أصيلة عريقة، وليتوانيا، فرفض الإمبراطور رفضًا قاطعًا، وأدت سياسته الخارجية الحذرة كذلك إلى تشكيل حلف دفاعي بين السويد وروسيا في ٢٢ شباط (فبراير) ١٧٢٤، وأعلنت روسيا قبل ذلك بقليل على لسان بطرس وممثله في استوكهولم عن ضرورة الإبقاء على «الشكل الراهن للحكم» في المملكة (سلطة الملك المحدودة والبرلمان، وليس بعث الحكم المطلق كما أراد فريدريك الأول وأولريكا اليونورا)، وحظي ذلك بترحيب حار من نواب البرلمان.

وجرت مفاوضات بشأن التحالف مع فرنسا وأسبانيا، والتصالح مع بريطانيا، وأخذ الأب دوبوا يمتدح بطرس الأكبر بعد أن تكلم عنه باستخفاف قبل خمس سنوات.

وفي عام ١٧٢٢ قال دوبوا للأمير كوراكين ـ الدبلوماسي المحنك القديم، والمشرف غير العلني على الدبلوماسيين الرُوس في أوربا ـ إن فرنسا تنشد الصداقة والتحالف مع روسيا:

ـ عندما تدخل فرنسا وروسيا في تحالف وثيق يمكنها أن تسيطرا على ميزان المصالح الأوربية، وتتحكما بالآخرين، وتظلا في صداقة دائمة.

وكان هذا السياسي الفرنسي يسير بالأمور إلى التحالف بين فرنسا وروسيا وبريطانيا، وتفسير ذلك بسيط: الصراع يقترب من أجل التركة النمساوية، فإن الإمبراطور من آل هامبورغ ليس لديه وريث، زد على ذلك أن أغسطس الثاني أصيب بمرض، وطرحت مسألة العرش البولوني أيضًا، ومن جديد ليس بالإمكان الاستغناء عن بطرس الأكبر وروسيا، ولهذا الغرض أرادوا تزويج يليزافيتا، كريمة بطرس، من دوق شارتر ليصبحا بعد حين ملكا وملكة لبولونيا، إلا أن دوبوا والوصي على العرش توفيا في أواخر عام ١٧٢٣، وواصل زعيما فرنسا الجديدان دوق بوربون ووزير الخارجية

مورفيل المفاوضات مع روسيا بشأن عقد معاهدة التحالف، وكان بطرس يميل إلى ذلك، وإلى انضمام بريطانيا إلى التحالف رغم الأعمال العدائية التي قام بها جورج الأول في السنوات الأخيرة من حرب الشمال.

وغدت روسيا في وضع دولي جعل بعض الدول ينشد صداقتها والتحالف معها، وجعل بعضها الآخر يكبح نواياه التوسعية العدوانية ضدها، وضد من تؤيده وتدعمه، كتب سولوفيف يقول: «لقد جرى أعظم حادث في التاريخ الأوربي والعالمي، حيث دخل النصف الشرقي من أوربا في حاية مشتركة مع نصفها الغربي، فمهما فكروا الأن في الغرب تتطلع أنظارهم عفويا إلى الشرق، وصار أدنى تحرك للسفن الرُوسية والقوات الرُوسية يثير اضطرابًا كبيرا لدى مجالس الوزراء التي تتساءل بقلق ما هي وجهة هذا التحرك؟».